

التسامح وقبول المختلف في الفكر العربي الإسلامي

أ.م. فائز صالح محمود الهبيبي
كلية العلوم السياسية - جامعة الموصل

تاريخ تسليم البحث : ٢٠٠٩/٥/٤ ؛ تاريخ قبول النشر : ٢٠٠٩/١١/١٩

ملخص البحث :

إنّ الباحث عن معنى التسامح أو أصوله أو جذوره في الثقافة الإسلامية يجدها في النصوص القرآنية الكريمة وفي سنة النبي محمد ﷺ ، وإنّ كان التسامح لفظاً لم يرد ذكره في القرآن الكريم لكنّ الشريعة الإسلامية ذهبت إلى ما يفيد معناه ، إذ تمّت الدعوة إلى التقوى والتشاور والتآزر والتراحم والتعارف وكلها صفات التسامح ، مؤكدة حق الاختلاف بين البشر، وإنّ الاختلاف لا يلغي الائتلاف .

ولعلّ فرادة الإسلام وأصالته قائمتان في هذه الفكرة الجوهرية وهي أنّ الدين ليس دعوة تبشيرية ، ولكنه حركة اجتماعية وسياسية ، وعندما فهم المسلمون النصوص وفق روح عصرهم بنو حضارة عظيمة وواسعة ومؤثرة وأنّ دولتهم وحضارتهم قدمت أجمل صورة للتعايش والتسامح بين المسلمين وشعوب آسيا وبينهم وبين شعوب أوروبا .

Toleration and Accepting the Different in the Islamic Arabic Thought

Assist. Prof. Faiz Salih Mahmood
College of Political Science - University of Mosul

Abstract:

The one who seeks the meaning of " *Tasamuh* ", "Toleration", and its origins and roots in the Islamic culture finds an answer in the Quranic Texts and in the Sunnah of the prophet Muhammad (P.B.U.H). Although the term "*Tasamuh*" has not been mentioned in the Glorious Quran, yet the Islamic Law has tackled what serves its meanings. There were calls for piety, deliberation, cooperation, mercy, and humans knowing each other. All of these are regarded as characteristics of toleration that confirm the right for difference among humans, and that that right does not eliminate coalition.

May be the uniqueness of Islam and its originality are based on the essential thought which suggests that religion is not a missionary call, yet a social and political movement. Realizing and understanding the Quranic texts within the frame and spirit of their times the Muslims succeeded in building a great widespread and effective civilization. Their state and

civilization have portrayed the most beautiful images of coexistence and toleration among Muslims themselves and between them and the peoples of Asia and Europe.

المقدمة :

إنّ المجتمع الإنساني ينطوي على درجة كبيرة من التباين والتوحد ، يتجلى التباين في العدد الكبير من الأعراق والأجناس والأديان والمذاهب والطوائف والقوميات التي تحمل قيم ومعتقدات وأعراف تؤدي إلى ثقافات مختلفة ومتنوعة ، أمّا التوحد في المجتمع الإنساني فيتجلى في أنّ كل أعضاء هذه الجماعات يشتركون في كونهم يسعون للعيش بكرامة وسلام وتحقيق طموحاتهم ومصالحهم ، وعلى ضوء ما تقدم فإنّ ما يجمع الناس هو أكثر ممّا يفرقهم . ونحن نشاهد الحوارات التي تبثها القنوات التلفزيونية الفضائية ، وتلك المداولات التي تجري في الاجتماعات الرسمية والعادية ، حينما تختلف المواقف ، ثمّ يقاطع كل طرف الطرف الآخر بالانفعال والصراخ ، ويتمسك كل طرف بموقفه ولو جانب الحق ، يتبين لنا مدى حاجة مجتمعاتنا إلى تعلم ثقافة التنوع والحوار والتسامح . وهذه الحالة كانت ولا تزال سبباً رئيساً للكثير من مشاكلنا الاجتماعية والسياسية وحتى الدينية منها .

ويمتاز الفكر الإسلامي بحركية واسعة وشمولية مستوعبة بحيث تمكنه من التأثير على ساحة الأحداث بقوة ، فهو ليس فكراً تجريبياً يعيش عالم التنظير ويتحجم في حدود خاصة ، إنّما هو ينطلق في آفاق الحياة ويدخل في كافة شؤون المجتمع والدولة ، فيحدد موقفه من كل قضية ويقدم الحل البديل لكل مشكلة وطرح . وهذا هو العامل الكبير الذي جعله حياً متجدداً مع تطور الحياة في مساراتها التاريخية الطويلة .

وفي عصرنا الراهن ، فإنّ تشابك المصالح بين المجتمعات الإنسانية نتيجة ثورة الاتصالات والمواصلات ووفرة المعلومات ، جعل من التسامح والتعايش والاتصال والحوار المفتوح ضرورات لا بد منها لتحقيق مصالح المجتمعات دون استثناء .

ولا ننسى أنّ مفهوم التسامح يرتبط بحقوق الإنسان ، مثل السماح بالتعبير عن الرأي والتنظيم ، ومساواة الجميع أمام القانون ، واحترام أو قبول رأي الأقلية ... الخ .

والتسامح كمفهوم لا يذكر إلّا ويقود إلى ضده ، ألا وهو التعصب ، فالعلاقة بين المفهومين علاقة تضاد ، بل إنّ التسامح هو العلاج الشافي للتعصب ، ولكل من المفهومين جذور متأصلة في تاريخ الإنسانية عموماً وعند العرب والمسلمين بشكل أخص ، وإنّ سلوك الإنسان وتصرفاته في الحياة مظهر من مظاهر عقيدته ، فإذا صلحت العقيدة صلح السلوك واستقام ، ومن هنا وعلى هذا الأساس كانت عقيدة التوحيد ، وكان الإيمان بالله تعالى ضرورة لا يستغني عنها الإنسان ليستكمل شخصيته ويحقق إنسانيته .

وقد تناولت البحث في أربع مباحث هي : أولاً التسامح اصطلاحاً ولغةً ، وثانياً في معنى التسامح ، وثالثاً التعصب موروث اجتماعي قديم ، ورابعاً التسامح في الفكر الإسلامي ، ثم الخاتمة .

المبحث الأول : التسامح اصطلاحاً ولغةً :

المحتوى اللغوي يؤثر على الوجدان ، فبعض المصطلحات في اللغة العربية لا تعطي نفس المدلول في اللغات الأوروبية ، وما هو مقدس لدى المسلمين قد لا يكون مقدساً في الديانات الأخرى .

وهناك خلط — مقصود أو بريء — في المصطلحات والمفاهيم الممتدة في كل مناحي الحياة سياسية واقتصادية واجتماعية ، وأخذ يستقر في الوجدان العربي حتى تاهت الحقيقة ، وأصبحت المشكلة الأولية لدينا هي تحديد المفهوم والمصطلح .

ولقد جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة (سمح) السماح والسماحة : الجود . وسمح وسماحة وسموحة وسماحاً : جاد . ولغةً يقال : سمح وأسمح إذا جاد وأعطى عن كرم وسخاء . وقيل : إنما يقال في السخاء سمح ، وأما أسمح فإنما يقال في المتابعة والانقياد ، ويقال : أسمحت نفسه إذا انقادت . والمسامحة : المساهلة ، وتسامحوا : تساهلوا (١) . والتسامح هو أن لا يعلم الغرض من الكلام ، ويحتاج في فهمه إلى تقدير لفظ آخر (٢) .

أما التسامح بالمعنى اللغوي الذي سنأخذه في هذا البحث ، فيعد واحداً من المفاهيم الحديثة في ثقافتنا ، وجد فيها في وقتنا الراهن أي بعد قرنين — على الأقل — من اكتماله في الفكر الأوروبي . وهو بوصفه الحالي ترجمةً عربيةً معاصرةً للمصطلح ، إذ المفهوم المستخدم في اللغات الأوروبية ، التي تأثرنا بثقافتها ، وهي تصل في الاستخدام بين الكلمتين Tolerance و Toleration للدلالة على معان متداخلة ، لكن من نوع التمييز بينهما ، وذلك على نحو يغدو معه التسامح Tolerance قرين العموم الذي يدل على المطاوعة والمرونة والتقبل واحترام آراء الآخرين ومعتقداتهم . وتتصرف دلالة ألتسامح Toleration إلى التخصيص فنقترن بسياسة التسامح الديني التي تعني أمرين : أولهما : تقبل المغايرة في فهم الديانة الواحدة بما يعدد طوائفها أو مللها ونحلها . وثانيهما : تقبل الديانات المختلفة واحترامها حتى من منظور الدين الواحد الذي يقبلها جميعاً ما ظلت ديانات سماوية ، فيعترف بها ، ويحدد العلاقات التي تصل بين المؤمنين به وغيرهم من المؤمنين بهذه الديانات ، فالتداخل بين دلالتيه العموم والخصوص ، هو الذي جعل الاستخدام المعاصر يميل إلى استخدام كلمة Tolerance للدلالة على معنى التسامح (٣) .

وفي أوروبا ظهرت كلمة التسامح Tolerance أول ما ظهرت في كتابات الفلاسفة في القرن السابع عشر الميلادي زمن الصراع بين البروتستانت والكنيسة الكاثوليكية ، حينما نادى أولئك بحرية الاعتقاد وطالبوا الكنيسة البابوية بالتوقف عن التدخل في العلاقة بين الله والإنسان(٤) .

والتسامح يقترن — في اللغة العربية — بدلالات قبول المختلف واللين في المعاملة وعدم التمييز بين الناس ، وتكاد تجمع قواميس اللغة على أنّ التسامح (موقف فكري وعملي قوامه تقبل المواقف الفكرية والعملية التي تصدر من الغير ، سواء كانت موافقة أو مخالفة لمواقفنا) (٥) . وبعبارة مختصرة التسامح هو : احترام موقف المخالف ، وهذا المعنى أخذت به أيضاً معاجم الفلسفة (٦) .

وإذا نظرنا إلى العلاقة بين الفلسفة والتسامح — من خلال ما تقدم — فسنحكم بأنّ الفلسفة هي أكثر المجالات استعداداً لقبول التسامح والعمل به ، فالبحث عن الحقيقة لا يعني امتلاكها ، لذا فإنّ الفلسفة هي ميدان للاجتهاد . والتسامح يتحقق في الاجتهاد ، إذ هو مجاله الطبيعي . ومبدأ (كل مجتهد مصيب) قد قال به كثير من علماء الإسلام في الفقه — قبل أن يغلق باب الاجتهاد — وهو قمة التسامح في هذا الميدان .

والتسامح كما جاء في تعريفه اصطلاحاً : (كلمة دارجة تستخدم للإشارة إلى الممارسات ، الجماعية كانت أم الفردية ، تقضي بنبذ التطرف أو ملاحقة كل من يعتقد أو يتصرف بطريقة مخالفة قد لا يوافق عليها المرء) (٧) .

فالتسامح مبدأ يشير إلى أنّ الأفراد عليهم أن يتعلموا كيف يعيشون ، ويسمحون لغيرهم أن يعيشوا ، ومن ثمّ يتيحون للآخرين ممن يعتقدون رؤى مختلفة عن رؤاهم ، ممارسة تلك الرؤى دون تدخل منهم . لذلك يبدو مبدأ التسامح مشابهاً للاحترام المتبادل من حيث كونه يترك مساحة للآخرين ممن تختلف معتقداتهم عن المعتقدات الخاصة ببقية المجتمع (٨) .

ولا ننسى أنّ مفهوم التسامح يرتبط بحقوق الإنسان ، وقيمة التسامح تتعلق بمجموعة من الحقوق التي تميز أي نظام ديمقراطي ، مثل السماح بالتعبير عن الرأي والتنظيم ومساواة الجميع أمام القانون ، والرفق بأسرى الحرب ، واحترام وقبول رأي الأقلية .

إنّ تعريف التسامح يعني قبل كل شيء اتخاذ موقف ايجابي فيه إقرار بحق الآخرين في التمتع بحقوقهم وحرّياتهم الأساسية المعترف به عالمياً .

المبحث الثاني : في معنى التسامح ومفهومه

وإنّ الباحث عن معنى التسامح أو أصوله أو جذوره في الثقافة العربية الإسلامية لا يجد دراسات كثيرة ، علماً بأنّ هذه الثقافة أكدت بعض لوازم التسامح ومبادئه في النصوص القرآنية الكريمة وفي سنة النبي محمد ﷺ، فإنّ التسامح لفظاً لم يرد ذكره في القرآن الكريم، لكنّ الشريعة الإسلامية ذهبت إلى ما يفيد معناه ، وقد جاء بما يقاربه أو يدل على معناه حين تمّت الدعوة إلى التقوى والتشاور والتأزر والتواصي والتراحم والتعارف وكلها صفات التسامح، مؤكدة حق الاختلاف بين البشر ، والاختلاف آيات بينات وإن كان لا يلغي الائتلاف. والآيات القرآنية الكريمة الواردة في هذا الخصوص عديدة منها على سبيل المثال لا الحصر :

{ وَإِنْ تَعَفُّواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } سورة التغابن / الآية ١٤ ، { وَتَزِدُّواْ فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ الْقَوَى } وآتَقَوْاْ يَا أُولِي الْأَبْصَارِ { سورة البقرة / الآية ١٩٧ ، { وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا } سورة الحجرات / الآية ١٣ ، { قُلْ لِمَنْ مَّافِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ } سورة الأنعام / الآية ١٢ .

أمّا في الغرب فإنّ التسامح كمفهوم دخل من باب الفكر الذي يعبر عن الصراع الاجتماعي أو يحاول التخفيف منه ، وبعبارة أخرى ، باب الأيديولوجيا في أوربا ، فظهرت كلمة (تسامح Tolerance) أول ما ظهرت في كتابات الفلاسفة ، ومع ذلك فقد برهن تطور الأمور أنّ المنادين بالتسامح لم يكونوا مستعدين دائماً للسير بهذا المبدأ إلى أبعد ممّا يتحمّله المذهب الذي يدينون به وتقتضيه مصلحة الدولة التي ينتمون إليها ويرضون عنها . ولذلك نجد دعاة التسامح من البروتستانت أنفسهم شأنهم شأن كثير من فلاسفة عصر التنوير ، في كل من فرنسا وانكلترا وغيرهما ، يضعون حدوداً لحرية الاعتقاد ، خصوصاً إذا كان المذهب الذي يعتنقه الخصم مخالفاً لمذهب الدولة التي ينتمون إليها ويعملون على خدمتها وتقويتها (٩) .

فوجد جون لوك - أحد رواد الفكر السياسي في فرنسا - في كتابه (رسائل حول التسامح) (١٠) الذي أصدره على أثر صدور قانون التسامح من الحكومة الانكليزية عام ١٦٨٩ ، يدافع عن ضرورة الفصل بين الدولة والكنيسة ، الدولة مهمتها الحفاظ على حقوق الأفراد (ولا علاقة لها مطلقاً بخلاص نفوس الناس ، والكنيسة هي مجرد جمعية حرة ، إرادية ليس لها أن تتدخل في الإيمان) ، وذكر لوك في كتابه بأنّ الدولة عليها أن تحفظ المصالح المدنية من قبيل الحياة والحرية والصحة وبالمثل تصون حيازة أو امتلاك الأشياء من قبيل المال والأراضي والمنازل والأثاث وما شابه (١١) ، فسلطة الدولة لا تتجاوز هذه النوعية من الأمور والأشياء ، أمّا أن تتسحب على أمور تتعلق بالمعتقد الديني فهذا ليس من اختصاصها ، فالدولة لا يمكنها استخدام سلطتها في الدفاع عن معتقدات دينية بعينها . وللحقيقة لا يمكن استغلال سلطة الدولة في الترويج (لمسألة خلاص الأنفس) (١٢) .

طبقاً لهذه الرؤية تمثل الكنيسة منظمة خاصة يمكنها أن تقر مذاهبها الخاصة بدون تدخل من الدولة . والأفراد الذين ينضمون إليها لا بد وأن يتفقا على تقبل مذاهبها وتعاليمها ، فضلاً عن ذلك ، فإن هذه المؤسسات قد تعلن عن إيمانها بما يمثل المذاهب الدينية السليمة ، فهي لا يمكنها باسم الدين أن تغير ، ومن ثم ، تهدد أو تسلب الآخرين حقوقهم ومنافعهم . وذكر لوك أيضاً أن هناك من الأمور الأخلاقية مثل الوثنية والتكاسل واللؤم والحسد ما يتعارض مع مذاهب دينية معينة ، إلا أن الدولة لا يمكنها أن تعاقب عليها . وهكذا يدوم الحال ما دامت هذه النماذج من السلوك ليست ضارة بحقوق الآخرين أو ما دامت تلك الأشكال من السلوك لا تهدد السلام العام (١٣) .

لا شك أن مذهب لوك في التسامح يوحى باتجاه (لتعش ودع غيرك يعيش) ، فقد ذكر أن الناس الذين لا يتسببون في إلحاق ضرر بالآخرين عند ممارسة دينهم يجب أن نتسامح معهم . وهذا اللطف يجب أن يستخدمه تجاه من لا يتدخلون في شئون غيرهم ، فالجميع أحرار فيما يرغبون في اعتقاده ما داموا لا ينكرون على الآخرين حقوقهم المدنية الأساسية(١٤).

فالتسامح ، إذن مبدأ سياسي واجتماعي - حسب وجهة نظر العديد من الكتاب الغربيين - يشير إلى أن الأفراد عليهم أن يتعلموا كيف يعيشون ، ويسمحون لغيرهم أن يعيشوا ، ومن ثم يتيحون للآخرين ممن يعتقدون رؤى مختلفة عن رؤاهم ، ممارسة تلك الرؤى دون تدخل منهم ، لذلك يبدو أن معنى التسامح هنا مشابهاً للاحترام المتبادل إذ يترك مساحة للآخرين ممن تختلف معتقداتهم عن المعتقدات الخاصة ببقية أفراد المجتمع . لكن التسامح قد لا يحقق في حقيقة الأمر هذا الهدف . فمثلاً لوك لم يكن يرى أن التسامح يفترض به أن يمتد ليشمل الكاثوليك والملحدين ، فالكاثوليك يطيعون أميراً أجنبياً لذا فهم خطرون سياسياً ، والملحدون يعدّهم خطراً على المجتمع والدولة وإن طرقهم في الحياة تؤخذ باستخفاف أو ازدراء من قبل الكثيرين في المجتمع (١٥) .

واضح إذن أن مفهوم التسامح ولد في حضيرة الأيديولوجيا والسياسة ليوظف توظيفاً سياسياً وأيديولوجياً ، ضد السلطة أو معها ، وأيضاً لا يصبح في مقدرة التسامح حماية حقوق الجميع إلا عندما يكون مطعماً بمبدأ الاحترام المتبادل .

وفي عصرنا الراهن ، الجمعية العامة للأمم المتحدة وبناءً على توصية من منظمة اليونسكو قررت أن يكون عام ١٩٩٥ عاماً للتسامح ، وقد صدر إعلان بذلك ومعه وثائق أصدرتها اليونسكو تحدد معنى التسامح وأبعاده الاجتماعية والدولية ومظاهره الواجبة في التعليم والثقافة وعلاقات الأفراد والدول على السواء ، وقد أكد الجزء الخاص بمعنى التسامح النقاط التالية (١٦) :

أولاً : التسامح هو احترام وإقرار وتقرير التنوع الثري لثقافات عالمنا ، ولأشكال تعبيرنا وأساليب ممارستنا لإنسانيتنا . ويتعزز بواسطة المعرفة والانفتاح والتواصل مع الآخرين ، وحرية الفكر والعقيدة والدين . فالتسامح هو التناغم في الاختلاف ، وليس واجباً أخلاقياً فحسب ، وإنما هو مطلب سياسي وقانوني في الوقت نفسه .

ثانياً : ليس التسامح تنازلاً أو تعاطفاً أو تساهلاً ، وإنما هو — في المقام الأول — إقرار بحقوق الإنسان العالمية ، واحترام للحريات الأساسية للآخرين . ولذلك لا يجوز استخدامه بأي حال من الأحوال لتبرير الاعتداء على القيم المبدئية للحقوق والحريات ، سواء في ممارسة الأفراد أو المجموعات أو الدول .

ثالثاً : التسامح هو المسؤولية التي تتدعم بها حقوق الإنسان وأنواع التعددية ، بما فيها التعددية الثقافية ، كما تتدعم به الديمقراطية وسيادة القانون . ويستلزم نبذ النزعات الدوجماتية (التعصبية) والاستبدادية ، وتأكيد المبادئ المنصوص عليها في مواثيق حقوق الإنسان .

ومفهوم التسامح في أوروبا مرّ بمرحلتين : الأولى دينية واستمرت طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وقد اقترنت بحركات الإصلاح الديني لمارتن لوتر كنك وكالفن وغيرهما . وقد برز جون لوك برسائله عن التسامح ، وفولتير بموقفه المعروف من وظيفة التسامح في علاقته بالأديان وعلاقة الأديان به . أما الثانية فمدنية والتي تبدأ من القرن الثامن عشر ، مقترنةً بالفلسفة الليبرالية ودعوات الديمقراطية ، إذ تأسس مفهوم التسامح في هذه المرحلة بوصفه قيمة إنسانية أساسية ، لا يمكن أن يتقدم البشر دونها ، ولا تتحقق الديمقراطية إلا بها .

وقد برز جون ستيوارت كمعبر عن هذه المرحلة وكارل بوير الذي طور ووكد محتواها الفكري المعرفي الذي يقوم على أساس من تأكيدات معنى النسبية ، وأنه لا أحد يحتكر الحقيقة ، وأن الحوار العقلاني كفيل بتصحيح أفكار البشر التي ينتجها التعصب . فبالإمكان الاقتراب من الحقيقة حتى لو لم نصل إلى اتفاق بشأنها ، فالسبل إلى الحقيقة عديدة ، وعدم إطلاقها قرين نسبيتها وتعدد طرق الوصول إليها في رأي كارل بوير .

من كل ذلك نخلص إلى القول بأنّ (فكرة التسامح تعني القدرة على تحمل الرأي الآخر، والصبر على أشياء لا يحبها الإنسان ولا يرغب فيها ، بل يعدّها أحياناً مناقضة لمنظومته الفكرية والأخلاقية ، ذلك أنّ قبول مبدأ التسامح وفكرة التعايش يعني تجاوز سبل الانقسام الذي يقوم على أساس الدم أو الرابطة القومية أو الدين أو الطائفة أو العشيرة أو غيرها من الناحيتين النظرية والأخلاقية على أقل تقدير) (١٧) .

ومن خلال ذلك يتخذ مبدأ التسامح منابع متعددة دينية وسياسية وقانونية وعرقية وأخلاقية واجتماعية وفكرية وفلسفية ، بل أصبح التسامح ركناً أساسياً من أركان القانون الدولي

لحقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني ، وهو ضرورة انطلاقاً من كون التسامح ضرورة للتعيش ، أو كما يقول غاندي (لا أحب التسامح ولكني لا أجد أفضل منه للتعبير عما أقصده)^(١٨) .

أخيراً أقول في هذا المقام أنّ التسامح مفهوم جميل باتفاق اللغات والأعراق ، والأمم كلها ، ولذلك علينا أن لا نضع أيدينا على قلوبنا ، وأن لا نخشى من طرح هذا الموضوع ، بل يجب أن نلح عليه لنكسب أنفسنا والآخرين .

فالتسامح عن الصفح عمّن أخطأ عليك أو تجاوز حده أو اختلف معك ، فالمفهوم بهذا الاعتبار قيمة أخلاقية ، وانتصار لروح الخير والأخلاق في النفس البشرية . وإذا كانت فكرة التسامح بسيطة وشفافة في حضورها ، فإنّها كارثية وقاتلة في غيابها، فغياب التسامح يعني في أبسط مظاهره انتشار فكرة التعصب التي ستكون موضوع كلامنا في الصفحة القادمة .

المبحث الثالث : التعصب موروث اجتماعي قديم

منذ بداية التاريخ الإنساني وعلى مرّ العصور كلها كان للتعصب وجود بكل أشكاله وألوانه وطيفه . والتعصب ظاهرة قديمة حديثة يرتبط بها العديد من المفاهيم كالتمييز العنصري والديني والطائفي .. الخ .

وقد صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في تشرين الثاني من عام ١٩٨١ إعلان خاص بشأن القضاء على جميع أشكال التعصب والتمييز القائمين على أساس الدين أو المعتقد ويكون غرضه أو أثره تعطيل أو إنقاص الاعتراف بحقوق الإنسان والحريات الأساسية أو التمتع بها أو ممارستها على أساس من المساواة .

والتعصب في اللغة العربية مشتق من العصبية والتي تعني أن ينصر الفرد عصبته أو أهله والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين (١٩) . وهو شعور داخلي يجعل الإنسان يرى نفسه على حق ويرى الآخر باطل ، ويظهر هذا الشعور بصورة ممارسات ومواقف مترتبة ينطوي عليها احتقار الآخر وعدم الاعتراف بحقوقه وإنسانيته (٢٠) .

وللتعصب أشكال مختلفة يرتبط بعضها ببعض فهناك - كما ذكرنا - التعصب الديني والعنصري والفكري وللنوع الاجتماعي والقومي والقبلي والطائفي .

ولكي نكون منصفين فإنّ مفهوم التعصب قد نشأ عند العرب نشأة اجتماعية وليس دينية - كما حدث في أوروبا - وذلك داخل المدار المغلق للقبيلة ، ثمّ أصبح دينياً مع الصراعات السياسية التي اتخذت الدين غطاءً لها . وتزايدت ملامحه الدينية في موازاة تصاعد ظاهرتين :

أولاهما فكرية ، وتتصل بمحاربة النزعات العقلانية . وثانيتها سياسية ، وتتصل بطبائع الاستبداد التي لا تزال ما يدعمها في بنية المجتمع البطريركي - كما يقول البعض من الكتاب - ، أو يقترن بالدولة التسلطية ، وهي الدولة التي تحتكر مصادر القوة والسلطة في المجتمع لمصلحة الطبقة أو النخبة الحاكمة (٢١) .

وهناك التعصب الاجتماعي الذي يجمد معه المجتمع على العلاقات التي تربط كل فئة من فئاته وتميزها عن غيرها من الفئات ، داخل البناء الاجتماعي الهرمي الشكل ، وفي إطار ترتيبه الصارم الذي ينفي (الحراك الاجتماعي) ويستأصله فتغدو العلاقات ثابتة بين الفئات المترتبة ، جامدة ، لا سبيل إلى تغييرها . يحمي ثباتها حراس القيم والأعراف المقترنة بالتراتب والمبقية عليه ، وذلك في نوع من الصرامة التي تشبه مفهوم العدل الأفلاطوني في جمهوريته الشهيرة ، إذ يعني العدل عنده بقاء كل فرد من فئات الجمهورية داخل الطائفة التي ينتسب إليها في علاقات التراتب ، لا ينتقل منها إلى غيرها ، حتى لا يختل البناء ، أو ترتبك العلاقات بما يؤذن بالدمار أو الانهيار .

وإذا كانت جمهورية أفلاطون أنموذجاً تصورياً لثبات علاقات مجتمع التراتب ، إذ بغدو الحراك الاجتماعي نوعاً من أنواع المحرمات ، فإن المجتمعات التقليدية المتخلفة تتبنى على المبدأ نفسه ، فتبقي على التراتب الذي تقوى به وتبقى ، وتمحو الحراك الذي يهدد علاقاتها فتزد كل الفئات إلى (العصب) الذي يغدو (عصبية) صارمة ، تتراتب على أساس من العرق أو الثروة أو السطوة أو الوراثة ، وذاك بمعنى غير بعيد عن تمييزات النوع التي تجعل الأكبر سناً هو الأكثر حكمة وخبرة ومعرفة ، والأعلى من الأصغر سناً الذي يظل في الوضع الاجتماعي المعرفي الأدنى بالقياس إلى الأكبر منه سناً ، ولا ينفصل عن ذلك تمييز النوع أو اللون الذي يجعل المرأة أدنى من الرجل في كل الأحوال ، شأنها في التذني شأن اللون الأسود في علاقته باللون الأبيض الذي يعلو على غيره ويتميز ، تماماً كما يتميز السيد الأبيض على الأسود الذي لم يفارق — في تراث بعض المجتمعات الإنسانية — موضع العبودية المقرون بالقبح والشؤم ، وأخيراً هناك التعصب الفكري الذي يغدو حالاً معرفياً ، تتصلب فيه الذات العارفة على ما أدركته ، وترفض أن ترى سواه ، أو تفتتح على ما غيره ، أو حتى تمنحه حق الوجود ، فوجود ما يؤمن به الوعي المتعصب هو وجود مطلق ، ثابت ، في مداره المغلق ، والتي تجعل من الإنسان المتعصب ذا بعد واحد ، لا يتوقف عن محاربة المخالفين له ، ويعد كل اختلاف معه أو عنه عداء ، يستوجب استئصال الفاعلين له ، مؤمناً في أعماقه أنه يدافع عن الحق المطلق الذي يزعم احتكاره ، وعن الحقيقة التي يتوهم حضوره تجسداً لها ، فيقمع مخالفه ، ويقاثلهم بحماسة الإيمان (٢٢) .

ويمكن الاستفادة من نظريات علمي النفس والاجتماع في فهم ظاهرة التعصب، إذ تساعدنا في فهم كيفية تطور الاختلافات بين الثقافات أو الجماعات التي تصبح مشحونة عاطفياً، وتكشف تلك النظريات الآثار السلبية لظاهرة التعصب، وتفسر سمات الشخصية المتعصبة التي نستطيع أن نلخصها بما يأتي (٢٣):

١. التسلط والجمود في التفكير .
 ٢. اللجوء إلى العنف لتحقيق الغايات .
 ٣. التمرکز حول الذات وعدم تقبل الحوار مع الآخرين .
- والتعصب ليس مقتصرًا على أهل ملّة أو فكرة أو توجه، إنّه يتعرض للجميع، وحتى ليغدو الغشاء الذي يغطي العقول أو يقلل من فاعلية الفكرة الحقّة . وهو ينشأ حين يكون الهدف هو الانتصار للذات أو للقوم أو للجماعة، بغض النظر عن التعاطي مع الفكرة المطروحة، فالموقف من فكرة الخصم سلبي وجاهز، والطرف الآخر لا يتوقع خيراً، إنّه يجرده من أي خير ويعزله عن أية نية سليمة أو فكرة صائبة . وتصاب التعصب أخلاق مرافقة منها، التسرع والعجلة في غير موضعها، والإسراف في التشنيع على الخصم والمخالف بما يعنيه ذلك من الوقوع في الظلم في حق الآخرين، وسرعة اتهامهم دون دليل أو بينة، ثمّ التعميم في الأحكام (٢٤) .

ويجب أن لا ننسى أن لا تقدم ولا مدنية ولا حضارة حقيقية، دون مشروع واضح لصناعة المجتمع المدني الذي ينهض على قواعد مؤسساتية، تحفظ التوازنات بين قوى المجتمع المتنوع من جهة، وتوفر الحد الأدنى من المشروعية القانونية للسلطات المدنية، التي هي العمود الفقري لأي مجتمع مدني، والتي لا يستقيم وجوده في حال ضعفها أو تداخلها أو ضبابية العلاقة فيما بينها، فهي الشرط الأول لمشروع المجتمع المدني المعاصر (الدولة العصرية) ذلك المجتمع الذي يتراجع فيه الشخصي لحساب القانوني والمؤسسي .

لكن، لا يمكن للمجتمع المدني أن يوجد، وإذا وجد لا يمكن له أن يترسخ في الواقع ما لم تكن حالة (التعصب) في أدنى درجاتها، لأنه مجتمع قانوني، أي مجتمع عادل، فمحاربة التعصب بأنواعه، هي إحدى الخطوات الأولى لصناعة المجتمع المدني المتسامح .

التعصب الذي تعاني منه المجتمعات اليوم، هو صناعة إنسانية سواء على نحو مباشر أو غير مباشر، ومناقشة أسباب نشوء التعصب أو تناميّه، هي بلا شك، من مقدمات صناعة ثقافة التسامح، ولعل من يتأمل حالة التعصب التي نعاني منها في مجتمعاتنا، يجد أنها ترجع إلى عدّة أسباب أهمها (٢٥):

١. صعود الأيديولوجيات القمعية التي تنفي الآخر وتحتكر الحق والحقيقة ، وحالة التعصب ليست فكرية خالصة بل هي في اشتباك دائم مع الوجداني ، ومن ثمّ ، فهي مشروع للعدوى بمرض التعصب .

٢. المحاضن التربوية التي تمّ اختراقها من قبل التيارات المتعصبة التي تتخذ منها وسائل لتمرير أجندتها الخاصة ، إذ تتحول تلك المحاضن إلى معسكرات لصناعة التعصب العرقي والمذهبي .

٣. الانغلاق على الذات ، فالتعصب يتنامى في البيئة الانغلاقية التي لا تفهم الآخر ، لغياب المعلومة أو عدم صحتها أو لغياب الوعي ، ومعظم حالات التعصب المذهبي ناتجة عن جهل بالآخر ، إنهم يعتقدون أنّ ما هم عليه هو الصواب القطعي ، وأنّ ما عليه الآخر هو الباطل القطعي .

٤. تراجع ثقافة التنوير والتسامح ، وبروز التعصب الفكري أو الثقافي .

٥. ظروف إقليمية ودولية .

وهناك إدعاءات ثقافية عند بعض المتعصبين لجنسهم أو ثقافتهم أو مجتمعاتهم تسوغ حق العيش بأشكال استثنائية لزعمهم بتمايزهم الحضاري أو تقدمهم في المدنية ، في حين يرون أنّ بقية البشر لا تستحق هذه الاستثناءات . هذا الشعور عبّرت عنه المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل ، عندما قالت أنّ ارتفاع أسعار الغذاء لا يرجع أصلاً إلى إنتاج الوقود الحيوي ، بل إلى (قصور السياسات الزراعية في البلدان النامية وإلى تغير العادات الغذائية) في الأسواق الناشئة . وأضافت - ولننتبه إلى هذه الإضافة المهمة من وجهة نظرها القاصرة - : (من يسافر إلى الهند هذه الأيام سيلاحظ أنّ النقاش الرئيسي يدور حول الوجبة الثانية . الناس يأكلون مرتين في اليوم ، وإذا كان ثلث الشعب الهندي البالغ تعدادة مليار نسمة يفعل ذلك فهو لاء عددهم ٣٠٠ مليون نسمة ، ذلك جزء كبير من أوروبا الغربية) ؟؟! . وعن القيود التي يفرضها الاتحاد الأوروبي على منتجات الألبان قالت المستشارة الألمانية : (إذا استهلكوا فجأة طعاماً يعادل ضعف ما كانوا يستهلكونه وإذا بدأ ١٠٠ مليون صيني في شرب الحليب أيضاً فإنّ حصص الحليب لدينا ستقل) ، إنّ هذا التصور لدى المستشارة الألمانية يعكس تعصباً ثقافياً واجتماعياً واضحاً ، يبرر حقوقاً استثنائية لبعض المجتمعات - المتميزة - ، وينكر على بقية سكان الأرض أن يأكلوا وجبتين في اليوم أو يشربوا كوباً من الحليب ، وهو تصور تعصبي عنصري بكل المقاييس ، يعبر عن جنوح في القيم كان وراء كثير من المآسي الإنسانية التاريخية (٢٦) .

وأخيراً نشير إلى أنّ التعصب يقوى في ظل هيمنة أنواع الاستبداد السياسي ، استناداً إلى القاعدة التي تقول : (الملك بالدين يقوى ، والدين بالملك يبقى) ، وما أكثر شواهد التاريخ التي تتضافر فيها نوازع التعصب لكي تكون لازمة من لوازم الاستبداد السياسي ، ويقرن

الاستبداد السياسي بالعصبية الاجتماعية والتعصب الفكري الذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى الغضب والاختلاف ، وتحمل الضغينة نحو الآخرين بعض النفوس التي لم تتعود المناقشة والتآلف والتكيف مع الآخرين المختلفين .

المبحث الرابع : التسامح في الفكر العربي الإسلامي

كان الدين الإسلامي وما زال منهجاً للهداية العقيدية مقابل منهج القهر السياسي ، وهو النموذج الذي ارتآه الله سبحانه وتعالى للعرب والمسلمين كأسلوب لبناء التضامن وطريقة في التعامل الجماعي واستيعاب العالم ، وبه فضلهم على العالمين ، من أصحاب الدول والممالك الدنيوية المستندة على القوة . ولكن هذا النموذج ليس سلطة قهرية بديلة تستمد شرعيتها من الدين ، بقدر ما هي استنهاض لمشاعر الإيمان والرحمة والمودة والتسامح عند كل فرد ، بما هو روح ووعي وخليفة لله وبعضاً من قبسه ونوره ، ومن ثمّ قابليته للتضحية الخالصة والفناء في سبيل الله تعالى (٢٧) .

لعل فرادة الإسلام وأصالته قائمتان في هذه الفكرة الجوهرية ، وهي أنّ الدين ليس دعوة تبشيرية ولكنه حركة اجتماعية وسياسية ، أي في جمعه نزعة الهداية الروحية إلى إرادة القوة ، هذا الجمع هو الذي جعل الإسلام يتخذ شكل الثورة التاريخية الكبرى ، كما أنّه السبب الرئيسي في انتصاره الكاسح وتدميره المعنوي القوي للدولة وإعادة بنائها على هامشه وبإزائه وضده في الوقت نفسه ، وكما هو معلوم فإنّ النصوص المقدسة موجودة منذ أن أنزلها الله تعالى على البشرية ، وليس في ذلك مشكلة ، وإنّما المشكلة في الجهد البشري الذي يقوم بفهمها وتفسيرها ، الذي هو الفارق في مراحل التقدم أو التخلف ، فعندما فهم العرب والمسلمون النصوص وفق روح عصرهم ، بنو حضارة عظيمة وواسعة ومؤثرة ، فالتعصب يولد التعصب ، والاعتدال يخلق الاعتدال ، والتسامح - مع من يستحق التسامح - يجلب التسامح ، ويكفي أن نورد مثلاً من تاريخنا الإسلامي المشرق ، فعندما حدثت الانتكاسة الكبرى أواسط القرن السابع الهجري بخضوع الدولة الإسلامية إلى سلطة كافرة هي سلطة المغول ، التي دمرت الكثير من معالم الفكر والحضارة الإسلامية ، وكانت انتكاسة هائلة في التاريخ الإسلامي وفي حياة المسلمين ، وأخذت حركة الزمن تتجه بصورة معاكسة لما كانت عليه سابقاً ولو أنّ الحياة الفكرية الإسلامية لم تستند على خلفية قوية وتراث متماسك ، لانهارت قلاع السياسة .

غير أنّ الفكر الإسلامي استطاع في تلك المرحلة ، أن يحافظ على مواقفه ، بل استطاع أن يعوض الانهيار السياسي ، بالتقدم الفكري والثقافي ، فكانت تلك الفترة المظلمة سياسياً ، مشرقة فكرياً ، إذ صدر نتاج فكري وعلمي ضخم من قبل العلماء والمفكرين المسلمين ، وهي ظاهرة تستحق الدراسة والبحث ، باعتبار أنّ قساوة الصدمة وشراسة الغازي المحتل كان من

الممكن أن تؤدي إلى شلل عام في مفاصل الحياة الإسلامية بما فيها الفكر ، إلا أن ذلك لم يحدث بل انطلق وربما بصورة أفضل من السابق ، وكان الانجاز الأكثر أهمية ، هو تحول المحتل المنتصر إلى العقيدة الإسلامية وإعلان الإسلام ديناً رسمياً في أجهزة السلطة المغولية ، وهكذا حقق الإسلام نصراً حضارياً ، رغم كون المسلمين خسروا المعركة خسارة فادحة مدمرة (٢٨) .

فالإنسانية التي حملها المسلمون هي إرث حضاري عربي إسلامي ، هي حضارة إنسانية في قمة الأنسنة ، ويجب أن لا ننسى التجربة العربية الإسلامية في بلاد الأندلس ، إذ تعايشت ثقافات وحضارات وشعوب ، فالحاكم كان عربياً مسلماً وعنده وزير يهودي ووزير مسيحي ، وقائد الجيش في إحدى المرات كان يهودياً . وقد وصل الأمر آنذاك إلى قيام البابا سلفستر الثاني الذي درس ثلاث سنوات في جامعات العرب المسلمين في الأندلس ثم عاد وسمي بابا في روما ، إلى دعوة الرعايا الغربيين إلى تعلم اللغة العربية والتخلق بأخلاق المسلمين التي تدعو إلى الصدق في التعامل والأمانة والتسامح ... الخ .

إذن حياة المسلمين في الشرق والغرب ودولتهم وحضارتهم قدمت أجمل صورته للتعايش والتسامح بين العرب وشعوب آسيا وبينهم وبين شعوب أوروبا .

وبالعودة إلى القرآن الكريم الذي يشكل المرجعية الأساسية للشريعة الإسلامية ، فضلاً عن السنة النبوية الشريفة ، فإن متابعة بعض آيات القرآن تعطينا صورة مشرقة ومتقدمة لجهة التسامح . فقد جاء في الذكر الحكيم : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافُ أَسَاتِكُمْ وَالْوَالِدِينَ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ سورة الروم / الآية ٢٢ ، ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفَرْ ﴾ سورة الكهف / الآية ٢٩ ، إن هذه الآيات وغيرها أعطت زاداً فكرياً ونظرياً لممارسات إسلامية متقدمة خصوصاً في عهد الرسول الكريم محمد ﷺ وخلفاءه الراشدين بشأن اعتماد التسامح ، وقد وردت تطبيقاته في العديد من الاتفاقيات والمواثيق والنصوص السياسية : مثل حلف الفضول ، ودستور المدينة المنورة ، وصلاح الحديبية .

وكثيراً ما نسمع عن التسامح في التعامل مع الأديان الأخرى وخصوصاً الديانات السماوية ، يقول النبي محمد ﷺ : (ألا من ظلم معاهداً أو انتقض أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة) (٢٩) .

ومن المتواتر المشهور أن أصحاب الديانات من الأخرى عاشوا في ظل الحكم الإسلامي قروناً طويلة محفوظة كرامتهم مرعية ذممهم وعهودهم ، ولو شاءت الحكومات الإسلامية عبر العصور لصنعت معهم كما صنع (فرناندو ، الفونسو السادس) مع المسلمين في

الأندلس حينما قام بطردهم وقتلهم خلال مجزرة بشعة سموها (محاكم التفتيش) ، أو كما صنع لويس الرابع عشر الذي اعتبر البروتستانتية ديانة محرمة يعاقب عليها القانون أو يصفى أهلها، أو كما صنع البريطانيون الذين حرّموا على اليهود أن يدخلوا إلى أرض بريطانيا لأكثر من ثلاثمائة وخمسون سنة ، بينما المسلمون لم يستخدموا في تاريخهم هذه اللغة ولم يقوموا بمثل هذه التصنيفات ، مع أنهم كانوا أسياد الموقف عبر قرون طويلة تزيد على عشرة قرون ، فأى قيمة عملية ونظرية أعظم من هذا التسامح الذي جسّده الإسلام والمسلمون (٣٠) .

يقول الله تعالى في القرآن الكريم : { قُلِ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ } سورة الجاثية / الآية ١٤ ، فالمؤمنون يغفرون للمشركين والكافرين الذين لا يرجون أيام الله ، ويقول : { فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } سورة الزخرف / الآية ٨٩ ، وقال تعالى : { فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } سورة الحجر / الآية ٨٥ ، وقال عز وجل : { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } سورة الأعراف / الآية ١٩٩ ، وقال عن صفة عباد الرحمن المؤمنين : { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } سورة الفرقان / الآية ٦٣ . فهذه معاني قرآنية محكمة من قطعيات تدل على أن التسامح لغة إسلامية أصيلة ، ومعنى أخلاقي شرعه الإسلام ، وحثّ عليه قبل أن تولد فلسفة التسامح في الفكر الغربي الحديث والمعاصر .

لقد كان رسول الله ﷺ يستخدم التسامح ويستعمله حتى مع المنافقين الذين يعرف أنهم كذلك ، ومع أنهم يمثلون أعداء الداخل فقد عفا رسول الله عن ابن أبي سلول مراراً ، وزاره لما مرض ، وصلى عليه لما مات ، ونزل على قبره ، وألبسه قميصه ، وابن أبي سلول هو الذي آذى رسول الله في عرضه يوم حادثة الإفك ، فيقول عمر بن الخطاب لرسول الله : أتصلي عليه وهو الذي فعل وفعل ؟ فيقول النبي محمد ﷺ : (يا عمر إنّي خيّرت فاخترت قد قيل لي : { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } سورة التوبة / الآية ٨٠ ولو أعلم أنّي لو زدت على لسبعين غفر له لزدت) (٣١) .

ولما جاء رجل ورفع السيف على النبي ﷺ وقال : من يمنعك مني يا محمد ؟ ثم سقط السيف من يده ، ثم أخذه النبي وقال : (من يمنعك مني ؟) أخذه إلى أصحابه وأخبرهم الخبر ، فتعهد للنبي محمد ﷺ أن لا يحاربه ، ولا يكون مع قوم يحاربونه ، فالتسامح أحرجه وأخذ منه كل قلبه وجعله يأخذ موقفاً جديداً من الإسلام والمسلمين .

والإسلام كفكر وعقيدة أكد قوانين ومبادئ مهمة عمل على نشرها في شتى أرجاء العالم ، من أشهر هذه المبادئ والقوانين التي كان لها الدور الأكبر في تقدم المسلمين في

مختلف الميادين هو قانون ومبدأ : اللين واللا عنف والتسامح ، إذ أن هناك أكثر من آية تدعو إلى ذلك منها :

١. الدعوة بالحكمة والمجادلة والتي هي أحسن واللين في القول : {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} سورة النحل / الآية ١٢٥ ، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} سورة العنكبوت / الآية ٤٦ ، {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} سورة فصلت / الآية ٣٤ ، {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} سورة آل عمران / الآية ١٥٩ .
٢. الدعوة إلى التعارف بين الشعوب : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} سورة الحجرات / الآية ١٣ .

والتسامح في هذا المقام ذا بعد وجودي ، أي أنه ضروري ضرورة الوجود نفسه ، فسنة الوجود اقتضت أن يكون وجود الناس على الأرض في شكل تجمعات بشرية ، وهي وإن تقف في ما يجمع بينها من وحدة الأصل والحاجة إلى التجمع والحرص على البقاء والرغبة في التمكن من مقومات الحياة ولسعي في إقامة التمدن والعمران والتوق إلى الارتقاء والتقدم فإنها قد تباينت في ما تنفرد به كل مجموعة من خصوصية عرقية ودينية وبيئية وثقافية (٣٢) .

٣. عدم الإكراه في الدين وإقرار التعددية ، فالتسامح وفق المنظور الإسلامي ، فضيلة أخلاقية ، وضرورة مجتمعية ، وسبيل لضبط الاختلافات وإدارتها ، والإسلام دين عالمي يتجه برسائله إلى البشرية كلها ، تلك الرسالة التي تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم وترسي دعائم السلام في الأرض ، وتدعو إلى التعايش الإيجابي بين البشر جميعاً في جو من الإخاء والتسامح بين كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم (٣٣) .

فالجميع ينحدرون من (نفس واحدة) كما جاء في القرآن الكريم : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} سورة النساء / الآية ١ .

كما أن الإسلام من جهته يعترف بوجود الغير المخالف فرداً كان أو جماعة ، والمرء إذا نظر إلى تلك المبادئ المتعلقة بموضوع حرية التدين التي أقرها القرآن الكريم بموضوعية ، لا يسعه إلا الاعتراف بأنها فعلاً مبادئ التسامح الديني في أعرق معانيه وأروع صوره وأبعد قيمه .

٤. الاعتراف بالديانات السماوية المغايرة وتقرير أنبيائها والسماح لمعتنقيها بالاستمرار في عقائدهم وشعائهم ، قال تعالى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكَ وَكُتُبُهُ وَرُسُلُهُ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ } سورة البقرة / الآية ٢٨٥ .

٥. يعترف الإسلام في كل أنظمته وتشريعاته ، بالحقوق الشخصية لكل فرد من أفراد المجتمع ، ولا يجيز أي ممارسة تفضي إلى انتهاك هذه الحقوق والخصوصيات ، ولا ريب أنه يترتب - على ذلك - على الصعيد الواقعي الكثير من نقاط الاختلاف بين البشر ، ولكن هذا الاختلاف لا يؤسس للقطيعة والجفاء والتباعد ، وإنما يؤسس للتسامح مع المختلف .

٦. إن المنظومة الأخلاقية والسلوكية التي شرعها الدين الإسلامي من قبيل الرفق والإيثار والعفو والإحسان والقول الحسن والألفة والأمانة ، وحث المؤمنين على الالتزام بها وجعلها سمة شخصيتهم الخاصة والعامة ، كلها تقتضي الالتزام بمضمون مبدأ التسامح . فالأصل في العلاقات الاجتماعية والإنسانية ، أن تكون علاقات قائمة على المحبة والمودة والتآلف ، حتى ولو تباينت الأفكار والمواقف ، بل إن هذا التباين هو الذي يؤكد ضرورة الالتزام بهذه القيم والمبادئ (٣٤) .

ويمكن القول أن هذه المبادئ لو لم تكن موضع التطبيق في كل الأحوال ، ولو لم تنطلق منها حركات وفلسفات واجتهادات مؤثرة وفاعلة ، لظلت هذه المبادئ على الهامش أو بعيدة عن الممارسات الغالبة بوجه عام ، ولكن هذه المبادئ تظل موجودة ، وتصلح منطلقاً لإصلاحات دينية لا نزال ننتظرها ، ولخطاب ديني منفتح لا نزال نتطلع إليه (٣٥) .

إن حياتنا السياسية أيضاً لم يتجذر فيها التسامح السياسي الذي يعني التعددية واحترام حق الاختلاف ، لذلك لم نجد في ثقافتنا كتابات عن التسامح في وزن ما كتبه جون لوك وفولتير وغيرهما من الكتاب الغربيين .

الخاتمة :

من الواضح أن كل مجتمعات العالم تمر الآن بمرحلة من التحول ، الذي يتمثل في الانتقال من عصر يعتمد على الإنتاج الصناعي ، إلى عصر يقوم أساساً على إنتاج المعرفة بكل ما سوف يترتب عليه من إعادة النظر في طبيعة وشكل وماهية ومغزى الوجود البشري . وليس من شك في أن عصر المعرفة سوف يطلق سراح القدرات البشرية في كافة المجالات ويساعد في الوقت ذاته على التقارب والتفاهم بين الأمم والشعوب ، وإن كان ذلك لا يخلو من بعض السلبيات التي تلازم كل تحول .

الدين الإسلامي كان وما يزال حيويًا وحياتياً ومعاصراً ويعد منهجاً للهداية العقيدية ، مقابل منهج القهر السياسي ، وهو الأنموذج الذي أرثاه الله تعالى للعرب المسلمين كأسلوب لبناء التضامن والتسامح وطريقة في التعامل الجماعي واستيعاب العالم . وبه فضلهم على العالمين ، من أصحاب الدول والممالك الدنيوية المستندة على القوة المادية . والإسلام جاء ليستنهض مشاعر الإيمان والرحمة والمودة والتسامح عند كل فرد ، بما هو روح ووعي وخليفة لله تعالى في الأرض .

التسامح هو مبدأ سياسي واجتماعي يشير إلى أن الأفراد عليهم أن يتعلموا كيف يعيشون ، ويسمحون لغيرهم أن يعيشوا ، ومن ثمّ يتيحون للآخرين ممن يعتقدون رؤى مختلفة عن رؤاهم ، ممارسة تلك الرؤى دون تدخل منهم . لذلك يبدو مبدأ التسامح مشابهاً للاحترام المتبادل من حيث كونه يترك مساحة للآخرين ممن تختلف معتقداتهم عن المعتقدات الخاصة ببقية المجتمع .

ولعلّ فرادة الإسلام وأصالته قائمتان أساساً في هذه الفكرة الجوهرية ، وهي أنّ الدين ليس دعوة تبشيرية ولكنه جاء كمنهاج روحي ومادي ، اجتماعي وسياسي ، ودستوره كامل للحياة بكل جوانبها . وإنّ ما قامت به الثورة التوحيدية هو أنّها نقلت مركز الثقل في السياسة من الدولة إلى المجتمع ، مثلما كانت ثورة الجماعة ضد الدولة ، والنفس ضد الجسد ، والروح ضد الطبيعة ، لقد خلقت عالماً الراهن ، عالم الإنسان كإرادة حرة مؤمنة واعية مختارة ، فالتسامح يعني فيما يعنيه الصفح عمّن أخطأ بحقك أو تجاوز حده أو اختلف معك اختلافاً غير أخلاقي ، والتسامح انتصار لروح الخير والأخلاق في النفس البشرية على روح الشر .

إنّ عالم اليوم في أشد الحاجة إلى التسامح الفعّال وقبول المختلف والتعايش الإيجابي بين البشر أكثر من أي وقت مضى ، نظراً لأنّ التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يوماً بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات التي أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب ، حتى أصبح الجميع يعيشون في قرية كونية كبيرة ، ويبحثون عن إيجاد مساحة مشتركة مع الآخر .

ومبدأ التسامح ليس لصيقاً بتراث معين أو مجتمع محدد ، إنّهُ يمتد عبر العصور ، فلا هو غربي ولا هو شرقي . فالأديان جميعها تعلن تمسكها بالتسامح . والقرآن الكريم تحدث عن حرية الأديان ، وهو ما يؤكد أنّ التسامح يعد ركن أساسي في الإسلام إذ أكدّ على حرية العقيدة لغير المسلمين وحرية التعبد وعدم الإكراه أو الإجبار ، والتزام احترام الآخر تحت القاعدة الإسلامية المعروفة لا إكراه في الدين .

إنّ دعاة التسامح وإن كانوا يبدون قليلين أو هكذا توحي عوامل الكبح في مجتمعاتنا المعاصرة ، لأنّه الطريق الأصعب ، لكن إذا أردت أن تعرف قيمة التسامح والصفح والعفو

تذكر الأخطاء التي وقعت منك تجاه الآخرين وحاجتك للعفو من الله تعالى : { أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ } سورة النور / ٢٢ . لذا على العلماء والمفكرين والتربويين أن يقوموا بإشاعة هذا المبدأ الذي هو في الأصل من مبادئ الإسلام العظيم ، وترويجه بين أفراد المجتمع بكل شرائحه وتياراته وصنوفه وأشكاله ، بين حكامهم ومحكوميه ، في الخطب والدروس والعلاقات ، ليكونوا مضرب المثل في التسامح والتدرب على هذا الخلق النبيل .

الهوامش

- (١) جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد الأول ، ج ١ ، مادة سمح ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٠ .
- (٢) الجرجاني ، التعريفات ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص ٣٧ .
- (٣) د. جابر عصفور ، ثقافتنا بين التعصب والتسامح ، مجلة العربي ، العدد ٥٦٧ ، فبراير / شباط ، ٢٠٠٦ ، ص ٨٠ .
- (٤) د. محمد عابد الجابري ، قضايا في الفكر المعاصر ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٧ ، ص ٢٥ .
- (٥) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
- (٦) د. جميل صليبي ، المعجم الفلسفي ، ج ١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، (د.ت) ، ص ٢٧١ ص ٢٧٢ ،
- (٧) موسوعة ويكيبيديا الحرة ، شبكة المعلومات الدولية ، التسامح .
- (٨) ستيفن ديلو ، التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني ، ترجمة ربيع وهبة ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣ ، ص ٧٠٠ .
- (٩) د. محمد عابد الجابري ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .
- (10) John Locke , A letter on Toleration , Indianapolis , Bobbs Merrill , 1955 , P . 17 .
- (11) Iped , P.17 .
- (12) Iped , P.27 .
- (13) Iped , P . 42 :
- (١٤) ستيفن ديلو ، المصدر السابق ، ص ٢٩٧ .
- (١٥) المصدر نفسه ، ص ٧٠٠ .
- (١٦) د. جابر عصفور ، المصدر السابق ، ص ٨١ .
- (١٧) يسري مصطفى ، عرض كتاب فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي ، للدكتور عبد الحسين شعبان ، شبكة المعلومات الدولية .
- (١٨) المصدر نفسه .
- (١٩) ابن منظور ، المصدر السابق ، ص ٥٥٥ .
- (٢٠) ويكيبيديا ، الموسوعة الحرة ، شبكة المعلومات الدولية .
- (٢١) د. جابر عصفور ، المصدر السابق ، ص ٨٥ .
- (٢٢) المصدر نفسه ، ص ٨٥ ص ٨٧ .

- (٢٣) د. أسامة عبد المالك عثمان ، مجلة ديوان العرب ، شبكة المعلومات الدولية ، في ٢٠٠٨/١٢/١٣ .
- (٢٤) المصدر نفسه .
- (٢٥) محمد بن علي المحمود ، التعصب وصناعة المجتمع المدني ، جريدة الرياض ، ٢٦/نوفمبر/٢٠٠٦ ، نقلاً عن : شبكة المعلومات الدولية .
- (٢٦) شبكة المعلومات الدولية في ٢٥ / ٦ / ٢٠٠٨ .
- (٢٧) برهان غليون ، الدولة والدين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٣ ، ص٥٨ .
- (٢٨) حسن الشامي ، الفكر الإسلامي في مواجهة التحديات السياسية ، دراسة في التجربة ، . http : // www . darislam . com . 26/9/2004 .
- (٢٩) سليمان بن الأشعث أبو داود ، سنن أبو داود ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج٣ ، رقم الحديث ٣٠٥١ ، دار الفكر ، بيروت ، (د.ت) ، ص١٧٠ .
- (٣٠) يسري مصطفى ، المصدر السابق .
- (٣١) محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري ، صحيح البخاري ، تحقيق د. مصطفى ديب التغا ، ج٤ ، ط٣ ، دار ابن كثير ، بيروت ، ١٩٨٧ ، رقم الحديث ٤٣٩٤ ، ص١٧١٥ .
- (٣٢) نبيل نعمة الجابري ، التسامح في الإسلام ، شبكة النبأ المعلوماتية ، ٢٠٠٨/٢/١٨ .
- (٣٣) المصدر نفسه .
- (٣٤) المصدر نفسه .
- (٣٥) د. جابر عصفور ، المصدر السابق ، ص٨٤ .